



مذكرات طه حسين

منشورات دار الاداب - بيروت

اوشك الدكتور طه حسين عميد ادب العربي على بلوغ الثمانين من عمره الذي امضاء دارسا باحثا واديبا منتجا ومربيا للاجيال الطالعة معنيا برفد افهامها بالجديد المتكسر والقديم الاصيل من معطيات الفكر والادب والثقافة في عموم ضروبها ومتنوع وانها .

ان ما انهد للاسهام في مجالاته والعمل في ميادينه ، مسن تاليف وتدريس ونقد ، هذا المكفوف ، لتكسب دونه هم افراد مجتمعين مسن المبصرين وتعبا به مكناتهم وطاقتهم ، لكنه الجلد الشاق والصبر الطويل والعزم المكين هي جماع المعدات التي تسليح بها ومكنته مسن الانتصار على عقبات الحياة وتخطي ازماتها ومجازاة مشغاتها واهوالها ، فهو بدع في ضروب تحصيله واكتسابه معارفه والماسح الواسع بأسرار بعض اللغات الاجنبية ومن بينها واحدة قديمة تكاد تفتد اليوم في عداد المهجور والمألوف عنه من موروثات الشعوب والاجناس المنقرضة او التي اوشكت على الانقراض والانعدام والتلاشي ، اعني اللغة اللاتينية ، بالاضافة الى احاطته الشاملة بدقائق اللغة العربية . وهو بدع ايضا في عصاميته التي تحولت به من صبي ناشئ في الريف المصري الى طالب ينهل العلم في رحاب الجامع الازهر فجامعة القاهرة وجامعة السوربون في قلب باريس ، مقابلا في هذه الحالات كلها ما يصادفه من عقبات الطرق ويكمن في شعابه ومفاوزه من الازراء والمحن والخطوب والكوارث . واخيرا هو بدع متفرد بهذا الاسلوب المشهود المات الى الاصاله والاشراق والمعدوبة والجمال ، باوثق الاسباب والصلات .

ان طه حسين في عصاميته وفتاء جهده وغزارة علمه واصالة ادبه وتدقق اسلوبه وفي عرفانه بدخانسل النفس الانسانية وسيره اغوارها العميقة واكتناهاه بواعث ما تنطبع به وتنم عنه من اطوار السلوك العجيب واوجه التصرف المستغرب في كثير من الاحيان ، حتى لقد نفذ الى تصوير اعرق ما يخالغ الانسان من نوازع الحب والصفاء ، والرضى واللين ، ووقف كذلك الى تجسيد ما يساوره ويعتره من عواطف البفض والمقت والثفور والموجدة ، خلل كثير من نتاجاته المتعددة على انم ما يقتضيه التصوير التجسيد من الاحكام والصدق والفضى بالدلالة الواقعية والمعانة المستفيدة او التمرسة الجربة . اقول ان طه حسين في كل هذا صبغة الذكاء المشوب والنبوغ التوقد والظفرة الانسانية الخلاقة المطبوعة على المثابة والعمل بلا كلل او توان .

ومذكراته التي صدرت مؤخرا تجيء اليوم محتلفة بعصارة جديدة من خبراته وتجاربه وتمرسه بمفالية الاحداث ومواجهة الخطوب ولقاء الناس الذي لا يحوج هو اخر دراسة او تعلما ، لانجح فيه وتوقى ما يستتبعه من المتاعب والاهوال في حالة الاخفاق والفشل ، انما هو فن يكتسب بالممارسة ويقوى بالدرية وبتربسوخ في النفس بالاستفادة من التجارب السابقة في حالة امان النظر فيها ومعاودتها بالتذكير والرجوع عليها بالادكار وابلاتها بالصناية والملاحظة النافذة ، وهي بمد هذا تنمة او استئناف لما ازجاه مسن خطراته وذكرياته في قصنيه الراءتين : الايام واديب .

نماذج بشرية

عبر هاته الذكريات الحبيبة يطل علينا الدكتور طه حسين بتصوره الشائق للكثير من الطبايع والنماذج البشرية الطريقة الحرة بالالتفات والنظر والنفاذ الى اطوارها ومسالكها ، فمن بينها الحسن الذي يوجد بالطاء والاحسان ثم يمن بما اعطي واحسن من مجلا استرداده واسترجاعه،

كهذا الشقيق الاكبر الذي راعه في حال ان يضع اخوه الاعمى على عينه غطاء زجاجيا اسود يغطي به اجفانه فيستهن ثمه ويهديه اخر ذهبا يخاله اليق بمكانه وارعن لمنزته بين من يخالط مسن الاصدقاء والخلان ، ثم ينكفيء عليه بعد مدة مطالبا اياه ان يرد عليه غطاءه الذهبي لحاجته الماسة اليه ، فما امض ما يساوره من الارم والفيظ وخالجه من الكرب والضيق وملك نفسه عليه حزنا واشفاقا ، لولا انه يتسلى عن الرزينة المونسة ويلفي عزاء في تصدي رجل غريب للاعلان عن استعداده للقيام بنفخته حين تطلبته الجامعة المصرية بالرجوع الى مصر وتوقف عن امداده بالمال بالنظر لظروف الحرب .

ومن النماذج الحبيبة المتجرده من الانابية والحسد والمفالية في الادلال بروح التصححية والابثار وانكار الذات شخصية صديقه الدكتور صبري السوربوني الذي فشل في اجتياز امتحان الليسانس لقصوره وضعفه في فهم النص اللاتيني المطالب بترجمته الى الفرنسية ، فمسا الفى عليه نظرة خاطفة ، حتى طواه وقدم الى المتحنيين ورقة بيضاء ناصعه وغادر المكان ضاحكا منسدا بيئا من الشعر اللاتيني القديم يصور الياس والقنوط ، لكنه لم يكف عن مسماه ويقلق عليه بصور نهائية ، انما يوالي تحصيله وتزوده من اللغة اللاتينية حتى اوفى على الغاية من الفهم والابقان وتقدم للامتحان مجددا واتيح له الفوز والنجاح ، هذا السوربوني لم يستبد به الجزع او يتملكه الروح والشعور بالخللان ، حين اخفق في الشوط الاول ، انما غمرته الفرحة وغلبه الجبور حين نجح صديقه طه حسين في نفس الامتحان ، « ففسد اقبل ذات مساء فرحا يكاد يخرج الفرح عن طوره مكدودا يقطع الاعياء نفسه امدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى ، ولشدة ما اسرع في هود السلم الى بيت الفتى في الطبقة السادسة ، فلم يكذب يفتح له الباب حتى اعلن لمن فتحه ان زميله قد ظفر بدرجة الليسانس ولم يدخل وانما رجع ادراجه لم يرد ان يستريح » ، فكان رائعا حقا ان يكسبون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة الفسيرة امك له واشد استنثارا به من اخفاقه هو في الامتحان .

الصوت العذب

والصوت العذب هو صوت الزوجة البرة الوفية ، شريكة الحياة وصديقة العمر التي فاسمته السراء والضراء وشاطرته في السر والاحزان ، وتحملت واياه ايام المر السديد والمشقة الطائلة والصبر على الكروه ، وهي التي بفضلها قبض له ان يطلع على امهات الكتب والمراجع من نراث اللانين واليونان والفرنسيين متدارسا اياها متفهما لها محيطا بمدخولاتها فقد امضت معه شطري العمر تقرا له بصوتها العذب النبرة الجميل الوقع الواضح النطق ، يعيرها هو الاخر سممه مصفيا لها متشربا ما تلهج به من ثقافات الشعوب الحية ومعارفا الميانية ومعطياتها الخصبية ، وتكفل كذلك بتفسير ما يشق عليه فهمه وتعذر استيعابه من فحواي لغة قومها حتى استقام لسانه ونقوى امكانه من تلك اللغة العريقة ، وكذا كانت بالنسبة له الملاك العجيب كما ذكر غير مرة الذي بدل بؤسه نعيما وترحه فرحسا وشقاءه سماعة وباسمه املا وظلام حياته الداجي نورا ساطعا وضياء وهاجا ، واستحالت حيرته وانشفال فكره وشعوره بالفربة وسط اولاء الناس ، حتى مسا يكاد بالفهم ويانس بهم ، فقد استبدت به الظنون والاوهام واءتورتسه الشكوك والهواجس ، على غرار ما استغرق فيه وانجر اليه صنوه القديم ابو العلاء فيلسوف المرة ، استحال هذا كله بقدرة قادر وبفضل هذا الملاك الملم ذي الصوت المشفق الحنون تملقا بالحياة واقبالا عليها وزاده ذلك ثقة بنفسه وایمانا بجدارتها للتحصيل واستعدادها للارتفاع بالعام والسعي في سبيل خدمة الجماعات من حوله به .

ان الصفحات التي اتى فيها الدكتور طه حسين على الاسهاب في سر ذكرياته الاولى عن الزوجة الوفية البرة منذ مبدا تعرفه بها وتوشح الاسباب بينهما حتى ازماعه على البناء بها والزواج منها ، وما صاحب ذلك في البداية من امتناعها وتاييها واعتذارها له عن رد هذا الطلب

الملح فقبولها به واستجابتها له في النهاية ، لتمد من ارواح ما كتب في باب تصوير مشاعر الالتئاع وعواطف الحرمان وخلجات الاحساس بلذة الحب تلوذق نماره واجتناء طبياته .

وان ينس الدكتور طه حسين شيئاً فلا ينس يوم تقديمه استقالته من التدريس في الجامعة ، عقب انخراطه في هيئتها التدريسية بمدة وجيزة بسبب امتناعها عن تلبية طلبه في مضاعفة مرتبه للالتحاق على صاحب له ، يعينه في التخصيص ويقوده الى حجرات الدرس ، فرد طلبه وانبرى من بعد بمزم الجامعة على مطالبته بتسديد ما انفقته في سبيل استكمال دراسته في باريس من النفقات الباهظة ، فما كان من الزوجة الا ان احث عليه بالرجوع عن الاستقالة والاعتذار عنها في حال من الإبقاء على ماء الوجه والاحتفاظ بالكرامة ، والقت في روعه انه انجر للوقوع في الشطط وتكب السداد والايغال في العماية والسرعة والفرور ، وخير له ان يعي ان الانسان يخطيء احيانا ويصيب احيانا .

الفلسفة المسفدة

من بين هاته الذكريات الحلوة التي يفيض الدكتور طه حسين في سردها واستقصاء اطرافها واستجماع شتاتها والتنسيق بينها ، صلته باسائده القدامى من علماء الأزهر الشريف واقطاب الاستشراق من الفرنسيين والاطالين ، وداعية الاسطالية في مصر المرحوم لطفي السيد صاحب الجريدة التي فتحت ذراعيها لاحتضان مقالات الكاتب الفتي حيث حظي بتوجيه المعلم الرائد واحتفائه به وحده عليه وتسديد خطوه وتوجيهه في التدرب على العطاء الادبي ، كانت اياما لا تخلو في بعضها او في الكثير منها من الانجرار للعثرات والكبوات والوقوع في حماة الاخطاء والايغال ، بل ونزوعه للشهرة وتوقه لاستطارة الصيت وذبوع الذكر ، فقد يسخره المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، لكتابة الفصول الطوال المتتامة في نقد نظرات المنفلوطي وجره ذلك الى شيء من الغلظة في القول والخاشنة في الخطاب وتجاوز حدود النقد الموضوعي المقبول الى الشتم المنكر والسباب الفليظ ، وما يزال يحس بالخجالة ويتملكه الضيق والشعور بالندم والاسف ، كلما خطرت في باله مناسبة كتابة تلك الفصول ، ومن قبيل تلك السقطات والوفوات، جنوحه ذات يوم الى الطعن في تصايف مقال نشر له في الجريدة ، الى الطعن في نسب واحد من اصدقائه ، دون ان يظن الى قباحة هذا المام وبشاعته ، ومناسبة كتابة المقال ذلك ، تنحصر في وقوع خصام حول سؤال من اسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الالب ، فكان ممن شارك في هذا البلد واحد من زملائه الازهرين ينتمي الى أسرة كبيرة يباهي دوماً بانتسابه اليها ، ونزع طه حسين الى امانة اللثام عن حقيقة الانتماء ذلك ، فلهج صراحة بان اب الزميل كان من عتقاء تلك الاسرة ، دون ان يستهدف ايداءه وابلامه والانتقاص منه ، انما « اعجبه هذا التمريض فاستجاب له ولم يراجع نفسه الا حين قسراه مطبوعا ، هنالك اسقط في يده ولم يرضي زميله الا بعد جهد وعناء وقد رضى الزميل وصفح ولكن الفتى لم ينس هذا الائم قط وما اكثر ما ازدرى نفسه وحاول ان يخلدها بالا تضع كلمة في مقال حتى تفكسر وتقدر وتجنب الابداء ما وجدت الى ذلك سيلا » .

ويتردد في اكثر من صفحة اسم الدكتور منصور فهي مقرونا بالاعجاب والاكبار ، ومنصور فهمي هو ذلك الجامعي الذي سبق الدكتور طه الى التماس التحصيل في جامعة باريس والظفر بمؤونة الدولة او الجامعة المصرية ، لاستتمام هاته البنية ، ويبدو انه كان منطلقا من ايمانه بحرية الفكر في كتابة رسالة الدكتوراه ، فحامت حوله الريب واستهدف بالتهنئات واخذ بمواضع التهم المرجفة والمفاخر المتجنبة ، فعين استدعى طه حسين خريج الجامعة المصرية لقابلة السلطان حسين كامل قبل سفره الى باريس ليزوده بتوجيهه وارشاده ، جوبه اثناء تلك المقابلة بتصدي حاكم مصر لتحذيره من دراسة الفلسفة لانها فسي ملته تفسد العقول وتفسد السلوك ايضا وراح السلطان يسرد على

اسماعه حادثة استقبال الطلبة المصريين له في باريس وكلهم كانوا حاسري الرؤوس وفي ايديهم فلانسهم الا واحدا كان حاسر الراس كزملاته ولكنه لم يمسك فلنسهو انما يمسك طربوشا في يده ، وحين استفهم في امرة انبىء انه منصور فهمي طالب الفلسفة الذي كان لزاما عليه ان لا ينزع طربوشه في حضرة السلطان لكنها الفلسفة اسببت عقله وذوقه وخلقه جميعا .

ويبدو ان رسالة الدكتور منصور فهمي التي لم يفصل حولها صاحب المذكرات كانت من الخطورة والاهمية بحيث اثارت في حينها من الصجيج والصعيج ما استهدف جراه الى سخط الهيئات الرسمية واوساط الراي العام والاضطرار للاقامة خارج الوطن والابعاد عن الجامعة ، حتى اذن له في التدريس في اعقاب ثورة عام ١٩١٩ التي ترتب عليها من تحرر العقول والافهام ما يبدد من سعائب الجهل والجمود ومن تحلل الافراد والجماعات من محدودية النظرة وضيق الافق ما راض الاميال المترمة على الانفتاح وتقديس حرية الفكر بل والكفاح في سبيل انتصارها ، لكن كان لسابقة الدكتور فهمي ابلغ الاثر في انفاذ قرار الجامعة المصرية بلزوم اطلاعها على الرسائل الجامعية التي يعدها البعثون الى الجامعة الباريسية قبيل عرضها على اساتذتهم المتخنيين وشروعهم بمناقشتها والتلاهي حولها .

فلاذات عبارية

عودنا الدكتور طه حسين ختل نتاجاته العديدة ، فسي التاريخ السياسي والاجتماعي والنقد الادبي والاعمال الروائية والقصصية والفصول المسهبة التي تنقل لنا نفثات الاحساس وخوارج الشعور والخواطر الذاتية في الحياة والاحياء ، حين تضيق نفسه بها وبهمم وترهد فيها وفيهم وتقنط من التامل في استحصال الرغائب والظفر بالمطالب والامال منها على فرط رضى منهم دون ان يستهونوا ذلك او يفضوا عنه او يشغل على نفوسهم فيه او يمضهم الحزن جراه ويسري الى نفوسهم هذا الشعور البغيض اللثيم اعني الحسد المؤرق لاجفانهم السالبهم الخدر والقمض النازع منهم الروح والجمام ، اقول عودنا الدكتور طه في كل تلك النتاجات الرائعة ان يطالعنا بتعابيره البديعة وفلاذاته الحكيمات الماته الى الفصاحة والرواء والاسر والروعة والجمال والتشويق ، بامتن الاسباب والواصر ، وفي كل مرة يطالعنا منها بالجديد المبتكر النابع من اعماق القلب والنفس والروح جميعا . وما اصدق قول صديقه المرحوم عباس محمود العقاد ، في معرض الحديث عن اسلوب طه حسين ، حيث سطر : انه « يتحدث ولا ينسى انه يكتب ويكتب ولا ينسى انه يتحدث ، واسلوبه الذي اختاره اوفسق الاساليب لذلك جميعا واولها من نوعه في اللغة العربية ، وليس فيه محاكاة لاسلوب اخر في اللغات الاوروبية ، ولقد افاد باسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الراي ولم تقنمهم المناقشة ، فراوا ان العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على اسلوب غير اسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع وراوا كتابا كبيرا يكتبها كما يشاء ، هو ، لا كما يشاء القدماء فتنتكبت وتلد وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة والفوا تعديد الاساليب وطرائق التعبير التي غير انتهاء وذلك وحده فتح قدير » .

في فاتحة الفصل المعنون : استاذ جامعي بخمسة جنهات ، يسطر الدكتور طه : « وكانت تلك الايام الطوال الثقال التي قضاهما صاحبنا في القاهرة مروعا ملتاعا بعد ان حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريد فقد اسلمته هذه الصدمة القاسية الى هم متصل زاد عنه النوم فلم يكن يذوقه الا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير ، وقد بلغ منه الجهد غاية وانتهى به العناء الى اقضاء ، بعد ليل مسهد وفكر مشرد ونفس قلقة ، فقد عزمتم كيف تنسل عن ماضيها - الثقيل ووقفت امام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفل منه الى ما كتب لها من سعادة او سقاء » .

رجوت من القارئ العزيز ان يتعمن في ما تطالع به تلك القطعة

المحدثين ، منذ الحرب العظمى الاولى ، وحتى الوقت الحاضر ، كلهم عيال عليه ومديون له بهذا التجديد الخلاق والابتداع الحسن فسي مجالات الاداء والتعبير والتجسيد ، حتى لقد وضح ان لكل اسلوبه وطريقته في تصوير عواطفه وازجاء خطرته ورعشاته ، وصياغة مفاهيمه ونظراته ومعتقداته ، في الكون والحياة والاحياء .

ولولا ترسل طه حسين في العبارة وتدفعه في الاسلوب وطواعيته في الابانة ، وتلقائيته في الافصاح والايضاح ، لظل الكتاب المحدثون جارين على طريقة القرون الماضية ، ابان عهود التخلف والظلام وانحسار ظلال مدينة السلام ، مترسمين نهجها وما تلزم به من التكلف الشين والتصنع العقيم والصناعة الفجة التخالية من الصدق والعفوية .

مهدي العبيدي

الحلة - العراق



لا مكان للقمر شعر عبده بدوي

الشعر الحي الذي يلائم روح العصر ، وحياة المجتمع ، هو الذي يقول ما يستحق ان يقال من غير ضجيج او افتعال . وهناك شعر يقول ما يستحق القول ، ولكن في صخب تنفر منه النفس وينبو عنه الحسى وهذا الشعر لا أرضى عنه ، ولا اميل اليه . وشر منه ذلك الشعر الذي لا يتضمن شيئاً ذا خطر ، ثم نرى صاحبه ، من خلاله ، يرفع عقيرته بالصياح ، وكأنه يخطب في حفل عام ! لكن شعر عبده بدوي في ديوانه الجديد « لا مكان للقمر » شعر حي بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فهو شعر هادف بافكاره ومرامييه ، ولكن هدفه ينبع من نفس صاحبه في وداعة وهدوء ، او بمعنى آخر ، فيما يشبه التلقائية ، ولهذا نجد في هذا الشعر ملازمة صادقة موفقة بين الهدف والتعبير . . . انه شعر اليف محبب ، تسمع من خلاله حين تقرأه همسا موسيقيا رقيقا يذكرنا بموسيقى الصالونات ، لولا انه شعر هادف يحقق لنا المتعة والفائدة . . . وانت تحسى ذلك حين تقرأ هذه المقطوعة من قصيدة « الباقي أبدا » :

فلتسند ظهرك ، ولتضحك عيناك بأشواق عبده
ولتجمع حولك خلانا قد جاءوا من ارض الغربة
لا تكسر قلبا ، لا تستمطر جفنا ، لا تزرع غضبه
عرش في الصمت باغنية . . ويقاع النفس اغرس حبه
فانا ساظل هنا كف تلقاك بافراح الابوه

ونحن نلحس في شعر عبده بدوي الى جانب هذا الهمس الاليف المحبب ، عناية واضحة بالرمز والتصوير . الى الحد الذي يجعلنا نقول ان شاعرنا يرسم بالكلمات اكثر مما يكتب بها . كما نجد الصور والرموز منبثة في شعره كله بحيث لا تخلو قصيدة من قصائده من عنصري الرمز والتصوير . وهو لا يستمد رموزه وصوره واهدافه ايضا من شاعر او اكثر من شعراء الغرب او الشرق ، كما يفعل بعض الشعراء المعاصرين ، ولكنه يستمد من عاله الشخصي ، ومشاعره النفسية ، ويترجم بها عن احساسه العميق بمشكلاته الخاصة ، ومشكلات مجتمعه ازاء تيارات الحياة المتقلبة ، واعاصيرها الجامحة . وموقف عبده بدوي من الانسان ومن العالم ، موقف الحب والعماء ، فهو يحب بكل ما في قلبه من رقة ووداعة ، وهو يعطي بكل ما في نفسه من طيبة وخير :

اني من عشت تجاورني
غنانا الفيض فاصبحنا
وعلى الامواج تفرقنا
لكنسي توامك الباكي
وكلانا في الماضي فكره
في قلب اغانيه نوره
والريح تباعدنا جهره
من يفتح في حب صدره

الرائعة من الاشعارات البديعة والتصوير الشائق والسحر الاخساذ والوصف البارع لقلق الانسان وروع وفزعه ، وهناء الطير وרגادته وحظوته بالروح والجمام ، من الاتعاب . ولعل من اروع اللوحات التصويرية التي استبانته في المذكرات ، الفصل الاخير المعنون : ايمان بالثورة ، حيث تنتهي مذكرات صاحب الايام بالسنوات الاولى من اياته الى الوطن في اعقاب ثورة ١٩١٩ ، وكان المجتمع منقسما بين انصار سعد وانصار عدلي باشا ، وكان هو منحازا الى جانب السلطة ممثلة في شخص عدلي باشا ، الذي اخفق في التفاوض مع المحتلين ، وراح انصاره واشياعه يفترضون المسوغات ويتدعون المبررات ويتحلون التزام ، لاخفافه وفشله في المفاوضات حول الجلاء ، من قبيل ان صاحبهم كان « ايبا كريما قد ثبت لهم فلم ينزل لهم عن حق الوطن ولم يقبل منهم الدنية وعاد اسم مرفوع الرأس » ، بينما يزعم اخصامه واضداده ومناوئوه ان ازدرائه الشعب ومثليه قد اضاع الاستقلال .

وما شان طه حسين بهذا اللدد المرجف والخصام الفظيع ؟!

لقد قفل من فرنسا مخيلا لنفسه ان الادباء والمفكرين هم قادة الشعب ورسول العرفان وهداة الامة الى الخير والايمان والحقيقة ، وهم من سجاحة الخلق ورحابة الافق وذكاء العقول والافهام ، بحيث لا تتحكم فيهم العصبية الفلاظ او تستبيهم النوازع الضيقة والافاق اللهنية المحدودة فتحبسهم في نطاقها وتدورهم في فلكها وتحتجزهم في مجالها ، انما هم يرتفون فوق احقاد الجماعات واوغارها ويسمون على صفائنها وذحولها ، وهم بعد المسكون باعنة التوجيه والرعي والارشاد ، لكن سرعان ما خاب الظن وجار المريد عن القصد ونكص المحاول عن السعى وقنط العول من التماس الرجاء ابتفاء المامل ، واذا اولاد الادباء والمفكرين ، من فراء الاسفار والكتب الضخام وحملة الاقلام واليراعات بشر لا يختلفون عن عامة الناس في اجترار الاخطاء وارتكاب المعاصي والولوغ في المآثم لهمم انحيازاتهم وتصباتهم وتقلباتهم وانذفاعاتهم ، وكذا يرى طه حسين نفسه ذات يوم في محطة القاهرة مع المستقبلين لعدلي وهو يصيح مع الصانحين : يحيى عدلي باشا ! « وقد حمل المدليون صاحبهم على الاكثاف حتى وضعوه في سيارته ولا يكاد المستقبلون للمخفق العظيم ، يخرجون من المحطة ، حتى تنهال عليهم اللعنات ويصب عليهم الاستهزاء صبا ثم يقذفون بالحجارة والعصي ويصاب صاحبنا ببعض الاذى ولولا ان رفيقه كان ماهرا لبقا لتعرض لشر كثير ، ولكن رفيقه انعطف به الى حارة من الحارات ثم نفذ به الى حيث امن الحصى والحجارة والشتم واعاده الى داره موفورا مكدودا مع ذلك » .

ولك بعد هذا ان تضحك او تبكي .

تبينت ان اتناول بالذكر مواضع اخرى ، من مذكرات استاذنا طه حسين خاصة عرائضه المقدمة الى رئيس الجامعة المصرية قبيل الحرب العظمى ، بصدد طلبه الانتساب الى البعثة ، تلك المواضع التي تقطر لنا ومرارة تسجر منها النفس تمزقا والتباعا وتعمر جراه بالحزن والاشفاق وتملأ مع ذلك ورغم ذلك بالاكبار والاعجاب ، بممكنات هذا الرائد الفذ والمصلح العظيم والاديب الخلاق ، رجوت ان ازجي فنونا اخرى متنوعة من فلذاته الصارية ، لولا اني لا املك سبيل النفاذ الى ذلك والفي الابواب بيني وبينه مغلقة موصدة ، ولا انتحل لذلك عاذرا او شافعا في التظويل والاسهاب واستحثاث القارئ واغرائه بتداول الكتاب ، كما يعتمد ذلك ويتوسل به ويتوقل عليه كثير من القصرين والعاجزين عن استكمال مباحثهم واستتمام مقالاتهم ، خطبة اتدعها السلف وترسمها الخلف وعكازة يتوكأ عليها مقطوعو الارجل لكنها لا تقبل من عثار او تنهض من كبوة .

لكن خير ما اختتم به هذا الاستعراض السريع الخاطف المجلان لمذكرات استاذنا طه حسين ، القول انه صاحب طريقة فسي الاسلوب ليس لها مقلد او مجار وحتى مقرب منها على حد او طرف او ناصية . وانه ثانيا بقوة العصاميين المتفلبين على الصعاب والمتنتصرين على عوارض الياس والتخذيل والتشبيط ، وان الكتاب والادباء العرب

ووجدتني فوق البشاشة والسنا
كوريقة مصفرة متفضنه
وشعرت اني سوف اسقط .. أنتهي
بين الرياح الثائرات المدجنه

فلنا ان شعر عبده بدوي شعر هادف في روحه وجوهه ، ونزيد
هنا ان هذا الشعر الهادف ينساب كما ينساب الجدول الرقيق ، ولا
يتدفق ندفق النهر الفياض ، وسر ذلك في رأينا يكمن في نفس الشاعر
المليئة بالرفقة والوداعة والطيبة ، ومن طبيعة هذه النفس ان تكبح ثورتها
في أعماقها ، فلا يظهر منها على السطح الا اثر ضئيل يشبه دخان النار
حين يرتفع بعيدا عن دائرة الوهج والاور ، وشاعرنا يعبر عن هذه
النفس حين يقول :

لم أرفع صوتي محتججا لادين العصر واشواقه
فانا قد غصت بضجته ومضيت أعناق أعماقه
واتوج بالشمس حياة توهج .. تقدو اشراقه
وأمد جناحا مسحورا والموت يفتح أحداقه
واليوم وعهري أصداء وبقايا حلم رفاقه
ألقاني أسعد انسان يستنبت من شوك باقسه
ويدق على الموت بكف ويكف يحضن أوراقه

فهنا نجد شعورا هو أقرب الى المرارة منه الى الشجوة . واشهد
اني ما رأيت عبده بدوي يثور في قسوة وعنف ، ولكني رأيت حنين
يثور ، يتحدث في مرارة عما يضيق به ويسخط عليه .

وقد ساعد على ظهور طبيعة الانسياب في هذا الشعر ، بحر
المتدارك الذي يستغرق معظم قصائد الديوان ، وفي هذا البحر من
الانسياب والترجح اكثر مما فيه من التدفق والاندفاع ، لان وحدانه
الموسيقية (التفعيلات) قصيرة ومتماثلة . ونحن نلمس هذا الانسياب
في قصيدته الساخطة « رغم كل شيء » حين يقول :

الصالم أولم مائدة يائسة قد ملئت مقنا
وظنونا تهتر ، وحقدنا وضياعا قد لس الموتنا
فالناس به جزر غرقى تنهاوى .. لا تسمع صوتنا
قد جفوا كالشجر الداوي وانهاروا اوراقنا شتى

وبهذه المناسبة أسوق الى القارئ احصائية طريفة ، ففي الديوان
اثنان وأربعون قصيدة ، منها سبع وعشرون من بحر المتدارك ،
والقصائد الباقية موزعة بين الخفيف(٦) والرجز ومجزؤه (٣) والكامل
ومجزؤه (٣) والرمل ومجزؤه (٢) والطويل (١) .

صدر حديثا

ديوان شعر

ثائر وحب

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب

من عاد النور لجبهته من لاس في عمق فجره
لما ضمنا في فرح دار تتوشج بالخضره
دار تحملها أعنية ونطوف بأفاق حره
وبقدر محبته للانسان والعالم فانه يتألم ويسخط حين يجد المعاني
الانسانية وقد غاصت من نفس الانسان ، وماتت في قلب العالم :
العالم أضحى مملئنا بجميع تفاهات البشر
فالأعين لا يلقى فيها خيط لحنان مزدهسر
والاوجه قد جفت حتى أضحت كبقايا من حجر
والقلب هموم مية من نور ياكل في الشعر
والعين زجاج ممفقع لا يجذب شيئا من صور
والماضي رأسى قد أضحى يتارجح من حول الذكر
والحاضر وهم ألسه فيرى كخريف في شجر
ولان شاعرنا يحب الشاعر الوديعه الطيبة ، واناس الودعاء الطيبين،
فاننا نراه يؤثر فريته التي نشأ فيها بالحب ، ويخصها بالحنين ،
ويصور الحياة فيها تصويرا رقيقا جميلا ، نجد فيه الفرح الفريسر
نارة ، وانحنز المرير ناره أخرى .. يقول في قصيدته « العريسة
الخالدة » :

أبصرت بسنبلها الحبا
والخصب يشق له دربا
والبنر يسير بها ونا
ان يلق الموال العذبا
والنسمة والفجر الرطبا
فالشعب بها حقل لبي
انسان ممتلىء حبا
أطيأ . اوراق . قربي
أبصرت بها نكسو ولدى
وتضم لاسمي حلو غدى
في فريتنا

وهنا نلمس الفرحة الفريرة بكل ما في الفريه من الخير والخصب،
والجمال وانحب ، ولكننا نلمس الحزن المرير من أجل الحياة الحسنة
التي يحيها الفلاح الطيب المظلوم في فريته التي لم يكن يملك من
أمرها شيئا غير ان ينبت لفيره الخصب والثروة ، ثم يحصد لنفسه
الفقر والمسفة : وذلك حيث يقول الشاعر في قصيدته « شارع
في الاسكندرية » :

قد جثته من قرية مسكينه
تفغو على أيامها المشوشنه
الليل في أعماقها لما غفا
هزته أجنحة الفراش اللينه
والفجر تزعجه الفؤوس .. فيرتمى
من خوفه للافق قبل الاونه
والسنبل الذهبي ينمو ضاحكا
في حقلنا .. لكننا لن نطحه

وهذه اللمسة الاخيرة « لكننا لن نطحه » هي من أعنى اللمسات
المليء بالحب والاشفاق ، ان يضيق بالمدينة المليئة بضجيج الحياة
بالايحاء والتأثير .

ومن الطبيعي ، وقد امتزجت نفس الشاعر بفريته هذا الامتزاج
وتحجر الشاعر ، حين اضطرته الظروف الى الحياة فيها ، فيقول في
قصيدته السابقة :

حملت فريتي الحزينة في دمي
ومشيت نحو بيوتك الزينه
فوجدت فيها غربة ، ووجدتني
طيرا غربيا ليس يلقى موطنه
فهبطت أعماقي أعاشر بينها
ياسي وخوفي والظنون الزمنه

الترجمة

وإذا همت نداءات تعرت في سماك
وإذا همت .. وضمتها يداك
ستلويك اكف السهد ان غامت لديا
انا ادري . انها فيك وفيا
غير اني ، حين يجبو الدفء في روعي ظللا
من رؤاك

تنهض الاغوار في رد الاسار
انا ادري انه يرهق اعماق الكوى روحا خفيا
ذلك الملعون يحيا في رؤانا
انه لا زال يحيا في مرايانا
زمانا

ذلك المنشد من شوق الى بركة حب
يفزل الاوهام من لون رؤاه
سمت انظاره انظاره !
عينه في عينه !

ويداه تورقان الشوق يمتد لمرماها خيال
من مرايا الماء بالشوق يده
اترى تنكره !

ذلك الناشر للحب شباك
انه فيك وفيا
اوصد الشوق وما ضمت يداك

اترى تفهم ما فينا
خفايانا .. اسانا
يثقل السهد عيون الليل ، لا يثقل عيني
ابدا .. من قال هذي الريح قد تترع لحني ..
اترى تدري بانني
حلقة الظلماء مني

يا عناقيد كروم .. سيجت عتبة داري ..
انا شيء جرحته الريح في يوم بليد
مات في الظل والصيف تراءى
ينثر الاحلام قينا .. في خفايانا حنانا
غير انا ..

نصداه برعب
ذلك المنشد من شوق الى بركة حب
ذلك الناشر للنفس شباك
انه فيك وفيا

اوصد الجرح وما ضمت رؤاك

آمال الزهاوي

دمشق

والشاعر يستعمل مجزوء الرجز مذبلا حين يقول :

لا تذكرني في فرحة عذراء كالضوء الوليد

وانا استعمله كذلك ، ولكن الشاعرة والناقدة المبدعة السيدة نازك الملائكة لا تستسيغ ذلك بحجة انه لم يرد في شعر العرب . وقد حدثت بيني وبينها مناقشة في هذا الصدد دون ان يقتنع احدنا برأي الآخر ، والذي آراه ان التذليل والترجيل جائزان في الرجز لانهما قد وردا بكثرة في الشعر المعاصر بل في شعر طائفة من الشعراء . تمتاز باحساسها الموسيقي الرفيف ، ولانها يمنحان النغم بسطوا وامتدادا بحيث يلائم ألوانا خاصة من المشاعر والانفعالات ، اما التملل بعدم ورودها فيما قالته العرب من بحر الرجز ، فليس ذلك بشيء ، لان المعروف ان ما وصلنا من شعر العرب ليس الا القليل بالنسبة الى ما قالوه من شعر .

وبصفة عامة ، فان الشاعر يميل الى الاوزان القصيرة ، وهذا الميل هو احدى سمات الشعر العربي المعاصر المتجدد .

وفي ختام هذه الكلمة احب ان ابدي بضع ملاحظات لا تفنى من الديوان او من صاحبه ، واجملها فيما يلي :

١ - ان شعور عبده بدوي بافريقيته شعور قوي عميق حتى يطفى في ديوانه هذا على شعوره بعرويته !

٢ - ان شاعرنا حتى في شعره الملتزم ، يفوض في اعماق النفس اكثر مما يجوب رحاب الكون ، ويصعد الى افاق الوجود .. انه يغني كما يغني العصفور ، اكثر مما يحاق كما تحلق النسور .

٣ - شعره العاطفي يكاد يخلو من توهج العاطفة ، وتوفد الانفعال، ولكنه يعوض عن ذلك بالصور الجميلة ، والموسيقى العذبة ، والكلمات الناعمة ، ومشاعر البراءة . والشاعر هنا في حاجة الى ان يخوض تجربة من تجارب الحب العاصف المتهب ، ليتوهج شعره العاطفي ويتقصد .

٤ - في قصيدة « حتى لا يسقط القمر » ورد هذا البيت :

وغدا في القلب وفي عقل وبعمز الشعب وفي القدره
وعطف النكرة على المعرفة هنا لا يوجد ما يسوغه ، والتشكيك يفيد الافراد ، وذلك يضعف المعنى .

٥ - في قصيدة « ثم يسقط القمر » بدأ الشاعر بمجزوء الرجز حين قال :

لا تلتفت لبائنا ان درت حول المنحدر

ثم ختمها بمجزوء الكامل سهوا حين قال :

اني امثل نارسا منكبرا صلبا عنيد

ومن قصيدة « رغم كل شيء » نجد هذا المقطع :

لا شيء له معنى ابدا في هذا العالم لا شيء

لا شيء له ظل ابدا قد يلقي بعض القيء

والبيت الثاني ينقص تفعيلة عن سائر الابيات ، وواضح ان الشاعر لم يكتب قصيدته على نظام الشعر الحر ، ويمكن ان يلتزم البيت مع غيره حين نقوله على هذا النحو :

لا شيء له ظل ابدا قد يلقي فنا بعض القيء

ولعل المطبعة هي المسؤولة عن ذلك وليس الشاعر ، على اني احب ان اشير هنا الى ان بحر التندارك كثيرا ما يخون الشعراء ويخدعهم ، فيلحذرون حين ينظمون فيه ، وليراجعوا قصائدهم بيتا بيتا .

واخيرا فاني اعتبر عبده بدوي وجها اصيلا مشرقا فسي شعرنا العربي المعاصر ، وهو شاعر متجدد بافكاره ورموزه وصوره وكلماته وبناء قصائده ، وبموسيقاه التي يلائم بينها وبين روح العصر ، وذوق المعاصرين ، وبما ادخله في شعره من عنصر الدراما الذي يعتمد على المونولوج الداخلي حيناً ، وعلى الديالوج حيناً اخر .

واشهد اني احب صديقي عبده بدوي واحب شعره ، ولكنني اشهد ايضا اني جملت هذا الحب بمعزل عن رأيي في الشاعر ، وفيما يضمه هذا الديوان ؟

ابراهيم محمد نجما